العلاقات الإنسانيَّة للإمام عبد الحميد بن باديس برجال الطرق الصوفيَّة.

أ. سلطاني عبد القادر: مخبر تطوير للبحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية.

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة سعيدة- الجزائر

أ.د. حفيان محمد. كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة سعيدة- الجزائر

الملخص: أسهم الإمام عبد الحميد بن باديس بمشروع نهضة علمية وثقافية، سعت إلى بعث الأمة الجزائرية، وإحياء تراثها، والتعريف بتاريخها المسلوب. حيث هدف البحث إلى كشف علاقات الإمام برجال الطرق الصوفية الذين اختلفت مناهجهم مع منهج الجمعية التي قادها الإمام.
وقد خلص البحث إلى أن الإمام رعى في عمله الإصلاحي العلاقات الإنسانية، من خلال التواصل مع رجال الطرق الصوفية، لأجل العمل على توحيد الجهود الرامية إلى نشر العلم والمعرفة، وبعث الروح الوطنية، ومقاومة الاحتلال.

الكلمات المفتاحية: ابن باديس، العلاقات الإنسانية، الطرقية، رجال التصوف.

The human relations of Imam Abd al-Hamid bin Badis with the men of the Sufi orders.

Student: Soltaniabdelkader.

Laboratory ((development)) for research in social and human sciences University of Saida- Algeria.

The supervisor is Prof.Dr. Hafiane Mohamed.
University of Saida- Algeria.

Abstract: Imam Abd al-Hamid bin Badis contributed to a project of a scientific and cultural renaissance, It sought to revive the Algerian nation and revive its heritage, And publish its stolen history. Where the research aimed to uncover the imam's relations withthe Sufi orders whose approaches differed with the approach of the association led by the imam.
The research concluded that the imam in his reform work, took care of human relations, By communicating with the menof the Sufi orders, In order to work to strengthen efforts aimed at spreading science and knowledge, resurrecting patriotism,and resisting occupation.

Keywords : IbnBadis, The human relations, sufi orders, suffi men.

1. مقدمة:

لقد كان لظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كمؤسسة إصلاحية الأثرُ الواضحُ في زيادة الوعي بواقع الأمة الجزائرية، هذا الواقع الذي خيَّمت عليه الأمية والجهل، وأطبقت عليه مظاهر الشعوذة والدجل، فكادت الأمة أن تفقد هُوِيَّتها العربية الإسلامية، نتيجة موجات التجهيل المتواردة عليه على مرِّ السنين، بفعل الاستعمار وأدواته البشرية، وضُعْف همم المثقفين، ورِضَاها بالحال الذي صارت إليه.

ويُعدُّ عبد الحميد بن باديس أحد العلماء المؤسسين لهذه الجمعية، فهو أحد باعثي النهضة العربية الإسلامية بالجزائر، وقد حمل لواءها في زمن متقدم من حياته. فأفنى أوقاته في التعليم القرآني، وتفسيره، ودروس التوعية المسجدية، والمحاضرات، والمقالات التي ينشرها في الجرائد التي كان يشرف عليها. كل هذا يدعو إلى بحث أو كشف حقيقته علاقة الإمام عبد الحميد بن باديس بالتصوف بعيدا عن الشائع من الأخبار، والمتداول من النقول، والتي نُزلت منزلة المُسلمات. لذلك تحرص هذه الأوراق على تجلية علاقة ابن باديس الإنسانية برجالات التصوف، وطرق تعامله معها كعالم إصلاحي. فالسؤال الذي يطرح: كيف جمع الإمام عبد الحميد ابن باديس بين نظرته الشرعية للتصوف كفكر، وبين نظرته الإنسانية لرجال التصوف في مراحل حياته؟

ولما كان الشائع والمروَّج له الخلافُ المستمر للإمام ابن باديس مع رجال التصوف على طول المسار الحياتي، كان هدف هذا المقالكشف نظرة هذا الإمام إلى التصوف كفكر وممارسة بعيدا عن الأفكار المسبقة أو الإيديولوجيات المغلقة، وكذا سبر علاقته مع رجال هذا الفكر من خلال مساره الحياتيّ، بإبراز نقاط التماس والوصل. وإطلاع الباحثين على سبب الخلاف مع بعض الطرق الصوفيَّة، وحقيقة ذلك الخلاف. ومن الأهداف التي يروم المقال تحقيقها الاستفادة من منهج ابن باديس في التعامل مع المخالفين، وتوظيف ذلك في ظل حملات الإقصاء التي تحفل بها المجتمعات الإسلامية والعربية.

ولأجل تحقيق هذه الأهداف سلك البحث المنهج التحليلي، من خلال تتبع آثار الإمام ابن باديس واستنطاقها لكشف أوجه العلاقة الإنسانية مع رجال الطرق الصوفيَّة، من خلال تاريخ الإمام منذ مرحلة الطلب إلى غاية تصدره المشهد العلمي والسياسي، ونظرته إلى التصوف كفكر يمثل جانب التزكية الإسلامي، وتحليل تلك النصوص أو التصرفات، مع الاستعانة بالجانب التاريخي الذي يعرض الوقائع والحوادث في سياقاتها التي نشأت فيها.

2. مفهوم العلاقات الإنسانية:

إذا كان من حاجات الحياة السعيدة في الأزمنة الحديثة عدم إمكان الإنسان العيش متفردا عن جماعة ولو قلَّتْ، إذا كان كذلك فلا بد من علاقات تربطه بأفراد هذه الجماعة، فمهما اختلفت أهداف وغايات وقناعات كل فرد، فلا مناص من ربط علاقات مع هؤلاء الأفراد لتحقيق حد مشترك من المصالح العامة الخادمة لسيرورة حياة الجماعة. فالعلاقات الإنسانيَّة تقوم على "التعامل فيما بين الناس بعضهم البعض في المجتمع، وتشمل مختلف جوانب الحياة الدينية والثقافية والاجتماعية والنفسية والأسرية، مبنية على أساس من الصدق والصراحة والوضوح، الذي يُظهر مدى التكامل في البناء الإسلامي، ويعكس مدى التلاحم والترابط بين المسلمين، والذي بالتالي يؤدي إلى التطور في كافة المجالات ويحقق أفضل النتائج" (محمد بن عايد الدوسري، 2005م، ص27). إذا فالأثر الذي تتركه هذه العلاقات بين الأفراد يدفعهم إلى العمل كجماعة لتنمية الجهود المنتجة العائدة بالخير على الجميع، مع إعطاء هوامش للحرية الفردية، مراعاة لمبدأ الفروق الفردية، أو القناعات الخاصة، أو الأيديولوجيات الحاكمة. (سيد عبد الحميد مرسي، 1986م، ص 12).

إذا وضحت حقيقة مفهوم العلاقات الإنسانية، اتضح الغرض من هذا البحث وهو الكشف عن هذا الجانب في فكر الإمام عبدالحميد بن باديس، الذي كان يسعى مع تيار كبير من الصوفية إلى العمل على نشر الوعي القومي العربي والإسلامي، لتحقيق النهوض من حمئة الاحتلال الذي جثم على الأمة، مخمدا جميع محاولات الاستيقاظ. فبالرغم من اختلاف الرؤى والوسائل والأهداف إلا أن عملَ الإمام لم يخل من مراعاة ذلك القدر المشترك مع المخالفين من خلال تقوية رابطة العلاقات الإنسانية، فيما يسمح به المقام، خدمة للمصالح العليا للوطن والأمة.

3.مكانة التصوف في نشأة ابن باديس العلمية والسلوكية:

لقد ذكر الأستاذ عمَّار طالبي أن أسرة عبد الحميد بن باديس كانت تنتمي إلى الطريقة القادرية (عمار طالبي، 1997م، 74/1)، فمن المتوقع أن يَشبَّ الولد على مناهج التربية الخاصة بهذه الطريقة فيتلقى أورادها، ويتحلى بآدابها، شأنه شأن كثيرا من الناشئة في البيوت التي تهتم بالعلم والتربية السلوكية معا. ولمَّا جدَّ ابن باديس في طلب العلم اختار له والده أحد الشيوخ الصالحين من ذوي المعارف الإسلامية والعربية، وهو الشيخ أحمد أبو حمدان الونيسي القسنطيني (عادل نويهض، 1980م، 346)، الذي كان منتميا إلى الطريقة التيجانية، وشغل منصب ((المقدم)) لها بقسنطينة (عبدالباقي مفتاح، 2009م، ص303).

ولقد ذكر ابن باديس الأثر الذي تركه في تربيته هذا الشيخ، حيث أخذ عليه عهدا، وأوصاه وصية حرص على اتباعها طول حياته، فنفعته كثيرا، وكانت سببا في تحقيق سعادته، وجلب البركة في أعماله؛ حيث يقول عنها ابن باديس: "وإني لأذكر للأول ((حمدان لونيسي)) وصية أوصانيها، وعهدا عهد به إليَّ. وأذكر أثر ذلك العهد في نفسي ومستقبلي وحياتي وتاريخي كله، فأجِدُني مَدِينا لهذا الرجل بمنَّة لا يقوم بها الشكر، فقد أوصاني وشدَّد عليَّ أن لا أقرب الوظيفة، ولا أرضاها ما حَبيت، ولا اتخِذ علمي مطيَّة لها، كما كان يفعله أمثالي في ذلك الوقت"(عمار طالبي، 1997م، 74/1، 78).

وقد يظهر من هذه الوصية مدى محبَّة الشيخ لتلميذه، أومريده، إذ كان حريصا في تنشئته على الإخلاص في طلب العلم، والتشديد عليه في قطع الصلة بين الدنيا وزخارفها، والعلم الذي يطلبه لوجه الله تعالى، لنفع أمته التي تئنُّ تحت وطأة الظلم والتجهيل. ثمَّ انتقل الشيخ عبد الحميد إلى جامع الزيتونة فاحتكَّ بعلمائها، وكان من أكثرهم تأثيرا في نفسيَّته، محمد النخلي، ومحمد الطاهر بن عاشور، واللذان يعتبران زعيمي النهضة الفكريَّة والعلميَّة والإصلاحيَّة بتونس، ولقد كانا من أنصار أفكار جمال الدين، ومحمد عبده الإصلاحيَّة، وفي تونس تتلمذ عبد الحميد بن باديس لعلم آخر من أعلام التيجانية، هو الشيخ محمد الصادق النيفر الأستاذ بجامع الزيتونة (عمار طالبي،1997م، 1/77-81)، وبعد أن رجع من تونس عاد شعلة من حماسة في إلقاء الدروس، ونشر الوعي، ثم ما لبث أن حجَّ، والتقى ثانية بشيخه أبو حمدان الونيسي، وجماعة من المفكرين والعلماء من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، ثم مرَّ على الشام، فكان في ذلك فرصة للقاء أعلامها، ومجالسة مشايخها، والاطلاع على الأوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية، وزيادة خبرة بأحوال الناس. ولمَّا رجع إلى قسنطينة سنة 1913م، شرع في العمل التربوي، بتعليم صغار الصبيان القرآن الكريم، كشأن العلماء الربانيين (عمار طالبي، 1997م، 1/77-81).

ومرحلة الطلب هذه تكتسي أهمية بالغة في صقل فكر ابن باديس وشخصيته بأخلاق العلماء المتنوعة مشاربهم، وتمكينه من الإحاطة بخلفيات الفكرية لكل فريق، على الوجه المرضيّ، لأن تلك الإحاطة مستقاة من تجربة فكرية واحتكاك قريب بأعيان التفكير الإسلامي وغير الإسلامي. فهي تجربة تجاوزت المطالعة بعيدة لأعلام الفكر، وخصوصا الصوفية منهم، لأنهم تميَّزوا بآداب خاصة، ومعاملات متفردة في العلاقة مع الخالق أو الخلق، قد يكون لها الأثر في نفسيَّة ابن باديس بعد ذلك في جهوده الإصلاحيَّة والوطنيَّة الساعية لتوحيد الصفوف والنهوض بحال الأمة.

4. علاقة ابن باديس برجال الطريقة التيجانية:

لقد سبقت الإشارة إلى علاقة ابن باديس بالطريقة التيجانية، حيث إنَّه نشأ وتربَّى على يدي مقدم الطريقة بقسنطينة، وتتلمذ على شيخ من شيوخها في تونس وهو محمد الصادق النيفر. وقد تكون هذه العلاقة أقل تعلقا إذا عرضت على علاقة أخرى برجل من رجال الطريقة، له الإسهام الكبير في عمل ونشاط الجمعية، ألا وهو شاعر الجمعية من دون منازع، محمد العيد آل خليفة.

نشأ محمد العيد في بيئة صوفية، وكان والده مقدما للتيجانية ببسكرة، وهو الذي شجع ابنه على الاتصال برجال الإصلاح، وقد كان بسكرة حَضَنَةَ كثيرٍ من رجالات جمعيَّة العلماء، وقد تأثر محمد العيد بكثير منهم وعلى رأسهم الطيّب العقبيّ، الذي كان يحضُرُ دروسَه في التفسير وعلوم البلاغة. وسبق هذا التأثرَ بآراء العقبي ومدرسته، تأثرٌ آخر نتج عن اتصاله بمشايخ من آل المكي بن عزوز، والذين عُرفوا أنهم دعاة إصلاح في الطريقة الرحمانية، أيام كان محمد العيد على مقاعد الدراسة بالعين البيضاء. ولقد بقيت صلة محمد العيد بالطريقة التيجانية إلى أخريات حياته، إذ أنها أخذت طابعا عائليا أكثر منه روحيا وثقافيا، ومما يثبت أن الشاعر لم يكن يتحرج من هذه الصلة، ولم يحاول إنكارها أو إخفاءها، لاعتقاده أنه لم يخرج فيها إلى ما يشين عقيدته أو يخدش

تدينه؛ ما حصل له أيام شبابه، ويؤكد صلته بالتيجانية، حينما كان طالبا بالزاوية ((القادرية))، فقد جهر بالبسملة وهو يصلي، خلاف المشهور من مذهب مالك، فأراد أحد الطلبة استفزازه وهو يصلي، بقوله:" أأنت تيجاني؟"، فلمَّا قضى الشاعر صلاته، أجابه قائلا :" أجل أنا تيجاني الطريقة، مالكي المذهب" (محمد بن سمينة، 1992م، ص12-15).

ومما يظهر علاقة ابن باديس بالشاعر محمد العيد آل خليفة، أنه خلال زيارته بسكرة خلال سنة 1925م، نزل ضيفا على والد الشاعر محمد العيد، فلما رأى ابنُ باديس ما عليه والد الشاعر من جمع ومزاوجة بين الجانب الروحي السلوكي للطريقة، والجنوح نحو الإصلاح، وإنكار بعض الانحرافات، قال ابن باديس للشاعر:"لو كان كل المتصوفة في البلاد كوالدك، ورعا وتقى وتمسكا سليما بأصول الدين، ومفهومه الصحيح، وإخلاصا للإصلاح لما كان، ما كان بين رجال الإصلاح، وبين أتباع الطرق المزيَّفة، ولكانت الجهود واحدة" (محمد بن سمينة، 1992م، ص18).

لذلك نجد محمد العيد آل خليفة اكتفى من الطريقة بالجانب السلوكي الروحي، دون طموح في كثير من الرسميات من مظاهر الولاية وغيرها، والتصيُّد لمناصب (المقدم) أو (الشيخ) كما يفعله كثير من أتباع الطرق. كما كان بعيدا عن الانحرافات التي أدت بالطرقيين إلى الغلو في وجوهٍ من التنسك، والحرص على بعض الطقوس التي غدت غريبة عن الإسلام. لذلك نجده يحرص على الزهد المطبوع بالطابع الأثري، فيقول في أبيات يصف حال العبد الصالح (محمد بن سمينة، 1992م، ص31):

قيــام الليل حلية كل بَرّ * بـباب الله قام له خديمَا

إذا جـنَّ الظلام عليه أغفى* وقـام يسابق الليل البهيمَا

بنافلة يطيل لها قياما * وقـــــــــــرآنا يرتله قويمَا

قضى متهجدا كالنجم يسري* وجدَّ يسبح الله العظيمَا

تناجيه الملائكُ في دجاه * و ترضى أن يكون لها نديمَا

ولقد قويت صلة محمد العيد بجمعية العلماء من خلال مشاركة الشاعر في تحرير جريدة (صدى الصحراء)، وفي تأسيس جريدة (الإصلاح)، ومطبعتها مع الطيب العقبي. ثم ما لبثت أن توطدت صلته بابن باديس، فكان في ذلك أثرا في فكر وشِعر محمد العيد؛ إذ كان يعتبره محمد العيد موجه الحركة الفكريَّة، والأدبيَّة في الجزائر، يقول الشاعر في ابن باديس: "كان عبد الحميد في الرأي قطبا * مرشدا للعقول والأفهام"(محمد بن سمينة، 1992م، ص21).

علَمٌ ثانٍ من أعلام التيجانية نجد له ذكرا في آثار ابن باديس، وهو البشير النيفر التونسي، فقد أرسل ابن باديس كلمة إلى العلماء، وقدَّم في ذكرهم هذا العالم، ومضمون هذه الكلمة يدور حول

بعض الاعتقادات التي يدعيها المنتسبون للطريقة التيجانية، منها أن (صلاة الفاتح) أفضل من تلاوة القرآن ستة آلاف مرَّة، وأنها من كلام الله القديم، وأن النبي ❐ علَّمها لصاحب الطريقة، ولم يعلمْها غيرَه، وأنَّ مؤسس الطريقة أفضل الأولياء، وأن المنتسبين إلى الطريقة يدخلون الجنة بلا حساب ولا عقاب، وتُغفر ذنوبهم الصغار والكبار. فبعد أن بين ابن باديس وجه مخالفة هذه الاعتقادات، وجَّه كلمة إلى العلماء، مقدِّما الشيخ التونسي السابق عليهم، لأنه كان من أتباه التيجانية، فقال:"إنني أدعو كل تيجاني إلى النظر في فصول السؤال والجواب، فإن أقرُّوا ما أنكرناه فليعلنوا إقرارهم له. وإذا أنكروا ما أنكرناه فليعلنوا إنكارهم له..."(عمار طالبي، 1997م، 150/3).

وفي هذه الرسالة ما يوحي بملكة التثبت عند ابن باديس، في مراعاة مكانة شيخه التونسي التيجاني، إذ جعلَهُ ابن باديس في تقدمة العلماء الذين أراد منهم أن يكونوا على بينة من هذه العقائد المنسوبة إلى التيجانية، وهذا الأسلوب فيه من الحكمة والإنصاف في عدم إلقاء الأحكام على عواهنها دون الرجوع إلى أصحابها، وأربابها الذين هم أدرى الناس بالطريقة، وأحرى بمعرفة الزائف من الثابت. إلا أن كتب التاريخ لم تذكر لنا رد الشيخ النيفر على رسالة ودعوة ابن باديس.

كما أنها منبئة بمراعاة ابن باديس لحقوق العلاقة القديمة، ومحاولته مد جسور المطارحة العلمية، والنقاش الفكري، والدعوة إلى الحوار والتواصل لتقليل مساحات الاختلاف في ظل رابطة الأخوة الإسلامية؛ وفي هذا تفاد للإقصاء، والتفرد بإصدار الأحكام، المفضي عادة إلى التدابر والخلاف، والذي تنجم عنه فتن طائفية ومذهبية، أخلت بموازين الحياة الآمنة في كثير من الأوطان الإسلاميَّة وغيرها.

5. علاقة ابن باديس برجال الطريقة الرحمانية:

تعتبر الطريق الرحمانيَّة أوسع الطرق انتشارا في عموم الجزائر خلال القرن 19م، وكانت مواقع انتشارها في الشرق والوسط الجزائري. كانت لهذه الطريقة مكانة واحترام عند مشايخ جمعيةالعلماء(صلاح مؤيد العقبي، 2002م، ص155- 159)، وعلى رأسهم عبد الحميد بن باديس، الذي كانت له علاقة ببعض مشايخها، وقد روي أنه كان يأتي مع ركب الطرقية لزيارة مركز الطريقة الرحمانيَّة بالجزائر العاصمة في حوالي سنة 1920م، وهو الركب الخاص برجال الطريقة الرحمانيَّة يأتون من مدينة قسنطينة لأجل زيارة قبر شيخ الطريقة سيدي محمد عبد الرحمن، فيحتفلون في ساحة المقبرة من خلال حلق الذكر والإنشاد المعهودة لديهم، والمقبرة ذات أقسام ثلاثة: المسجد والضريح، وساحة الضريح الفسيحة، والقبور (توفيق المدني، 1977م، 2/ 69). وقد أنكر على ابن باديس ذلك بعضُهم فيما بعد، فكان يجيب بقوله:"كنت ضالا فهداني الله"(محمد بن سمينة، 1992م، ص18).

وفي مشاركة ابن باديس للركب القسنطيني دلالة واضحة على علاقته برجال الطريقة بصفة خاصة، وبالتصوف بصفة عامة. ومما يؤكد هذه العلاقة بالطريقة الرحمانية، أنه كان يكتب في

جريدة ((النجاح)) وهي من أوائل الجرائد العربية بروزا إثر الحرب العالمية الأولى. أسست هذه الجريدة سنة 1919م، من طرف أحد مشايخ الطريقة الرحمانية هو عبد الحفيظ بن الهاشمي من آل زاوية سيد علي ابن عمر بطولقة. وكانت جريدة ((النجاح)) في أول أمرها كما يذكر الشيخ أحمد حماني مؤسسة وطنية، استبشر بها العلماء والأدباء والمفكرون، فشاركوا في تحريرها، وعلى رأسهم عبد الحميد بن باديس، الذي يكتب أحيانا باسمه الصريح وأحيانا باسم مستعار وهو((العبسي)). كما كان يكتب فيها كل من العربي التبسي، وأبو يعلى الزواوي، وغيرهم من رواد الإصلاح. ثم استقال ابن باديس من الجريدة، وأسس المطبعة الإسلامية التي أصدر من خلالها أول جرائده ((المنتقد)) سنة 1925م. ولمَّا تأسست جمعية العلماء اشتدَّ الخلاف بين أعضاء الجمعية، وأصحاب جريدة ((النجاح)) لأسباب متعددة(أحمد حماني، 1984م، 1/ 128-130).

ومن مظاهر الصلة كذلك ما قام به ابن باديس من الإشراف على تصحيح الطبعة الثانية لكتاب((المنظومة الرحمانية في الأسباب الشرعيَّة المتعلق بالطريقة الخلوتيَّة))، والتي ألفها أحد شيوخ الطريقة الرحمانية وهو عبد الرحمن باش تارزي، حيث قال عبد الحميد بن باديس في آخر تصحيحه للطبعة: "ندبني الشيخ المذكور مصطفى باش تارزي إلى إعانته على نشر المنظومة الرحمانيَّة بالوقوف على تصحيحها، فلبَّيْتُطلبه راجيا من وراء ذلك أن يتذكر الإخوان ما عليهم في هذا الطريق الشرعي من الأدب العملي والعلمي، ويعلموا أنهم لا يكفيهم في ترقية نفوسهم مجرد الانتساب الاسمي، فيدعوهم ذلك إلى العلم والتعلم اللذين لا سعادة في الدارين بدونهما ولا تقدم، فيتفقهوا حينئذ حقيقة الدين، وينتفعوا بنصائح المرشدين، ويكونوا يوم ذلك إن شاء الله تعالى من المهتدين، والله المسؤول أن يهب التوفيق والنفع والثواب لكل ساعٍ في خير المسلمين، آمين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين"(نورالدين بولحية، 2015م،1/ 93).

ولقد حاولت معرفة تاريخ هذا العمل الذي قام به الإمام إلا أن المصدر الذي ذكره لم ينصَّ على تاريخ التصحيح، حتى وجدت صاحب كتاب (الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها) يذكر أن المنظومة الرحمانية تم طبعها سنة 1923 م، بمطبعة النجاح بقسنطينة، وأشرف على تصحيحها وكتابة خاتمة الطبع الإمام عبد الحميد بن باديس، ولقد ذكر أن خاتمة الطبعة كتبت من طرف الإمام في قسنطينة عشية الأربعاء 14 من شهر شوال عام 1341هـ (صلاح مؤيد العقبي، 2002م، ص160، 163)، وهذا التاريخ من التقويم الهجري يوافق سنة 1923م، وقد ذكر صاحب الكتاب شيئا من أبيات المنظومة منها:

باسمك نبدا يا معين * والصلاة على الأمين

من أتـــــانا باليقين * في طـــــريق الأوليَّا

يا من تـــــريد الشفا * واتبـــــاع المصطفى

ادخل طـــــريق الوفا * طـــــــــريق الخلوتيَّا

يا من تــريد التوفيق * وسلـوك أهل التحقيق

اخـــدم هذه الطريق * طـــــــريقة الصوفيًّا

يا من تريد الأوراد * وبلـــــــــوغ ما يراد

ادخل طريق الإسناد * طـــــــريقا أزهريًّا (صلاح مؤيد العقبي، 2002م، ص161، 162).

وبعد أن أنهى الإمام تصحيح الطبعة، بالكلمات المشار إليها سابقا، وضع عنوانا هو (خاتمة الطبع بقلم المصحِّح)، جاء فيها تنبيه على أهمية المنظومة، وأن طبعتها الأولى قد نفدت من الأسواق تدليلا على أهميتها، مما دعا إلى كثرة الطلبات لإعادة طبعها لتعم منفعتها، ثم عرَّف بعدها عبد الحميد بن باديس بشيخ الطريقة في ذلك الزمن، مصطفى باش طارزي، فذكر شيئا من صفاته فقال:"لا زال هذا الرجل معروفا من شبابه بجمال العفة، وحسن السمت، ومكارم الأخلاق، والحياء التام، والتواضع الفطري مع جميع الناس ... فحفظ القرآن الكريم، وقرأ العلم وتأدب بآداب الطريق، وشبَّ على الأخلاق الكريمة اللائقة بمثله، في كرم مجده وشريف تربيته، وما هو مترشح له من الجلوس على سجادة الطريق، وتهذيب الإخوان" (نورالدين بولحية، 2015م، 1/ 94).

ثم واصل عبد الحميد بن باديس التعريف بشيخ الطريقة، وذكر خلافته لأجداده في مشيختها، فقال: "وفي شوال 1335 هـ جلس على سجادة الطريقة الخلوتية بعد وفاة عنه الشيخ البركة سيدي الحاج أحمد الرحمة والرضوان، وله في الإذن بتلقين ذكر الطريقة الخلوتية إجازتان تتصلان بالقطب الأكبر، والغوث الأشهر الشيخ سيدي محمد عبد الرحمن القشطولي الأزهري دفين الجزائر، الذي أتى بالطريقة الخلوتية إلى وطن الجزائر من ديار مصر"(نورالدين بولحية، 2015م، 95/1).

والظاهر في كلام عبد الحميد بن باديس، في هذا العمل استعماله لمصطلحات الصوفيَّة، في التعريف بشيخ الطريقة، والتعريف بالمنظومة الرحمانية، فمن تتبع خاتمة الطبع وجده يستعمل مصطلحات (الإخوان)، (الطريق)، (الأدب)، (الترقية)، (حقيقة الدين)، (الطريقة)، (آداب التربية)، (الشيخ سيدي)، (سجادة الطريق)، (عارفِيهِ)، (الشيخ البركة)، (الإذن بتلقين ذكر الطريقة)، (القطب الأكبر)، (الغوث الأشهر). وهذا يظهر اطلاعه على جميع ذلك، وإلمامه به جيدا، وهو الذي شبَّ في أسرة تنتمي للطريقة القادرية، وتلقى العلم والتربية على شيوخ من الطريقة التيجانية كما ذكرنا سابقا.

وإذا علمنا أن الطريقة الرحمانية بقسنطينة كانت مركزا لاجتماع علماء الحنفية، والأتراك منهم خصوصا، ومقرا لنشر الطريقة في ضواحيها، وهمزة وصل بين بلاد القبائل والزوايا الجنوبية(نورالدين بولحية، 2015م، 95/1) ، تبين من ذلك سعة صدر الإمام عبد الحميد لآراء المذاهب الأخرى، وقبوله بالآخر، وتعايشه مع المخالف. وهو القائل عن جمعيته: "... بأننا دعاة

إصلاح، واتحاد بين المسلمين على اختلاف مذاهبهم، وإننا ندين الله – قولا وعملا واعتقادا- بقوله تعالى: ﴿إنما المومنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم﴾ جهدناوطاقتنا"(عمار طالبي، 1997م، 503/3). وهو الذي نشأ في بيئة مالكيَّة، وأُسْرَةٍ ورثت الذبَّ عن المذهب منذ القديم، فكثيرا ما كان يفتخر الإمام أنه حفيد بلكين بن زيري ، والمعز بن باديس الذي نصر المذهب المالكي، وناضل ضد الإسماعيلية الباطنية، وحارب بدع الشيعة بإفريقية (عمار طالبي، 1997م، 72/1).

والناظر في العلاقة بهذه الزاوية العريقة والمجاهدة يمكن أن يستشف أثر انعدام روح العصبيَّة المذهبيَّة عند ابن باديس، وإيمانه بنسبية امتلاك الفرد أو الجماعة للحق، وأن ذلك الحق ملكية جماعية مشتركة، تتحقق بالاجتماع وتثمر بالاتفاق، لذلك فهو لا يجد غضاضة في التواصل مع إخوته في المذاهب الإسلامية الأخرى، مهما اختلفت أجناسهم وأعرقهم، لأجل تحقيق هدف الجامعة الإسلامية، والذي حملت لواءه حركة الإصلاح بداية القرن العشرين. مما يعزّز حقيقة انفتاحه الفكري على الآخرين وتواصله معهم؛وفي علاقته بأعلام المذهب الإباظي في الجزائر إشارات مشهودة، فقد أشركهم في تأسيس جمعيته المعروفة، فقد كانوا من روادها منذ زمن التأسيس إلى غاية يوم الناس هذا.

6. علاقة ابن باديس برجال الطريقة العلاوية:

تعد الطريقة العلاوية من أشهر الطرق الصوفيَّة الجزائريَّة، والتي لها تعلق وثيق بتاريخ جمعية العلماء المسلمين، وما ذلك إلا للصراع الذي شاب العلاقة بين الطرفين فيتلك الفترات، والردود العلميَّة الموضوعيَّة، أوالتي اكتست الطابع الأدبي الساخر، أو تلك التي كان الغرض منها التهويل ونشر أخطاء الخصوم لا غير. أما عن علاقة الإمام عبد الحميد بن باديس فمما يظهر منها؛ ما نشره عن رحلته الصيفية لسنة 1931م إلى بعض المناطق الغربية حيث نزل بعدة مُدُنٍ والتقى بمشايخ الطرق، وباحثهم وألقى عدة مواعظ ونصائح، حيث قدَّموه لمعرفتهم بقدره ومنزلته. ومن المدن التي دخلها في رحلته الصيفية مدينة مستغانم، وهي عاصمة الطريقة العلاوية (والصحيح في النسبة أن يقال العليوية نسبة إلى مؤسسها أحمد بن عليوة)، حيث التقى بمجموعة من المشايخ منهم شيخ الطريقة، يقول ابن باديس عن هذا اللقاء: "... ومن غَدِهِ دعا للعشاء معنا أعيان البلد منهم فضيلة الشيخ المفتي سيدي عبد القادر بن قارة مصطفى، وسماحة الشيخ سيدي أحمد بن عليوة شيخ الطريقة المشهورة، وكان هذا أول تعرُّفنا بحضرتهما فكان اجتماعا حافلا بعدد كثير من الناس" (عمار طالبي، 1997م، 311/1).

وقد أفصح ابن باديس أن أول لقاء له بابن عليوة كان في هذه الرحلة، وبعد العشاء ألقى ابن باديس موعظة في المحبة والأخوة، ولزوم التعاون والتفاهم، وأن لا يجعل العلماء وأتباعهم القليل الذي يختلفون فيه سببا في قطع الكثير الذين يتفقون عليه. لأن الاختلاف بين العقلاء لابد أن يكون، ولكن الضار والممنوع أن يؤدي ذلك الاختلاف إلى الافتراق، وبيَّن بعدها أن الدواء الذي يقلل الاختلاف، ويعصم من الافتراق هو تحكيم الصريح من الكتاب والصحيح من السنة النبوي الشريفة. فلاقت هذه الكلمات استحسان الشيوخ الحاضرون، وحلت منهم محل القبول. وكلهم

يشعر بألم الافتراق، وينفرون منه، ويصغون إلى دعوة الوفاق والتحاب(عمار طالبي، 1997م، 311/4).

وبعد هذا اللقاء دعا شيخ الطريقة العلاويَّة الشيخ ابن باديس إلى العشاء في اليوم الموالي، وهذ بعد إجابة ابن باديس لدعوة الغداء عند شيخ الطريقة القادرية وهو الحاج الأعرج بن الأحول. ثم تلتها جلسة العشاء فكانت جلسة حافلة بأعيان البلد، وتلامذة الشيخ العلاوي، وقد أعجب ابن باديس بكرم شيخ الطريقة وتواضعه لضيوفه، واحتفائه بهم أشد الاحتفاء، فقال:" وبالغ الشيخ في الحفاوة والإكرام، وقام على خدمة ضيوفه بنفسه، فملأ القلوب والعيون، وأطلق الألسنة بالشكر"(عمار طالبي،1997م، 312/4). ثم واصل ابن باديس يصف ساردا تفاصيل الحفلة حيث أخبر أنه بعد المأدبة قرأ قارئ آيات من القرآن الكريم، ثم أخذ تلامذة الشيخ في إنشاد قصائد من كلام الشيخ ابن الفارض، بأحسن الأصوات، فترنحت لها الأجساد، ودارت بين الحاضرين من العلماء مذكرات أدبية في معاني بعض أبيات ابن الفارض، زادت مجلس العلماء رونقا وبهاء. وهذه التفاصيل تظهر أدب الشيخ ابن باديس في التحلي بآداب الضيافة وأخلاقها، والتزام الأدب الإسلامي في جمع الكلمة، ونبذ الخلاف. وبعده عن بخس الناس أشياءهم.

وواصل ابن باديس سرد تفاصيل تلك الأمسية لقراء جريدته، فأخبرهم بمدى إعجابه بأدب شيخ الطريقة العلاوية، من ذلك أنه لم يتعرض خلال المجلس لمسألة من المسائل المختلف فيها بين جمعية العلماء والطريقة العلاوية، بل كانت محادثاتهم كلها في الكثير مما هو محل اتفاق دونالقليل الذي هو محل خلاف. وما عكَّر صفو تلك الجلسة إلا حديثُ رجل من أعيان المدينة حين قال: "هؤلاء المفسدون الذين يسمون أنفسهم مصلحين يُنْكِرون الولاية". فرأى ابن باديس في وجه الشيخ ابن عليوة الإنكار لهذا الكلام الخارج عن الدائرة، وهو الحريص على جمع الكلمة، ولمِّ الشمل. فانبرى بعدها ابن باديس إلى الكلام، لأنه لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة، فأوضح لذلك العامي أن الولاية الشرعية ثابتة بصريح القرآن الكريم، ومن أنكرها فلفظ المفسد قليل في حقه، وحقه أن يقال فيه ملحد. وأوضح له أن جميع العلماء مهما اختلفت مشاربهم تتسع صدورهم لرد كلامهم، إلا العامة المنتمين إلى التصوف فإنهم يأبون أي رد أو نقد في أحد الشيوخ، وكأنهم يعتقدون فيهم العصمة. واستدل على كلامه بكلام سيد الطائفة الجنيد حين سئل: أو يزني الولي؟ فأطرق ثم قال:" وكان أمر الله قدرا مقدورا". ففي كلامه تعليم للناس أن شيوخ الزهد غير معصومين. فما كان من الحاضرين إلا الرضا بهذا الكلام، وسكت المتكلم، وقال شيخ الطريقة: هذا مما لا يخالف فيه أحد". فقال ابن باديس: "مثلكم من يقول هذا"(عمار طالبي، 1997م، 313/4).

ففي هذه الوقائع التي يذكرها ابن باديس ما يشهد للاحترام التي يكنُّه شيوخ ومريدو الزوايا للشيخ ابن باديس، لِما وجدوه فيه من أدبٍ جمٍّ، وتحلٍّ بالفضائل، ومراعاة للمقامات، واحترام للأحوال. حتى إذا طالع المتتبع كتب شيخ الطريقة العلاوية، ومنها كتاب((أعذب المناهل في الأجوبة والمسائل))، وجد مجموعة من الردود التي نشرها، أو بعثها شيخ الطريقة إلى مخالفيه، مناقشا لهم في مسائل علمية، أو ناقدا بعضا من تصرفاتهم العملية. وهذه الأجوبة لأشخاص مختلفين من

داخل وخارج الجمعية. أما فيما يتعلق بأعضاء الجمعية فإن ردوده عليهم كانت تتسم بالطول، وحشد الأدلة، في محاولة للإفحام، وشدة في بيان وجه الصواب عنده، وهذا ما حصل مع مبارك الميلي، وأبي يعلى، وكحول، والعقبي.(أحمد بن مصطفى العلاوي، (د.س)، ص201). إلا أن أنه في رسالته إلى عبد الحميد بن باديس نجده يوظف عبارات أنيقة، وجُمَلا غاية في الأدب والاحترام، وقد وصفها مقدمها أنها كلمات لم يجار فيها ابن عليوة انفعالات ابن باديس، بل عالجها بالحكمة، والموعظة الحسنة، شأن الأكابر المتقين، حتى إذا طالعها قارئها استغنى عن ترجمة الشيخ ابن عليوة مما يرجع لعظيم خُلقه، وصدق توجهه إلى الله.

يقول أحمد العلاوي بعد التحية، والشكر لابن باديس على الرسالة التي بعثها له:"أما ما جرى به القدر، فالأمر موكول فيه لحسن المقاصد، فما علينا وعليكم إلا تصحيح النية فيما نراه مستجلبا لرضاء الله عز وجل، ولا يخفاكم كون الله جلت قدرته لم يكلفنا وإيَّاكم إصابة الصواب، إنما يكلفنا الظنَّ فيما نعمله، أو نقصده كونه صوابا، فإن نحن أصبنا فالمنَّة لله، وإذا نحن أخطأنا فرجاؤنا في الله أن يأخذ بيد المخطئين الغير المتعمدين، لنكون في جملة من أخذ بيده والسلام" (أحمد بن مصطفى العلاوي، (د.س)، ص201).

هذه كلمات ابن عليوة وما تحمله من اختصار، وأدب وإنصاف في الرد على رسالة ابن باديس شاهدة على المكانة التي تبوَّأها ابن باديس عند مشايخ الطرق. وقد قال محمد الصالح رمضان تلميذ ابن باديس عن شيخه: " يكاد جميع الناس كلهم أعداء وغير أعداء مسلمين وغير مسلمين- والمسلمون هم الطرقيون لأنهم كانوا يعدونه شرا عليهم ويتصورونه السبب في زوال نفوذهم- كلهم يجمعون على صدقه وتقواه"(مازن صلاح مطبقاني، 1999م، ص 174). لكن هذه الرسالة لم يذكر طابعوها تاريخها، مما يجعل الباحث عاجزا عن ربط الأحداث التاريخية بعضها ببعض، من أجل أخذ صورة جيدة، يصح من خلالها الحكم على طبيعة العلاقة بين رئيس جمعية العلماء ومشايخ الطرق الصوفية.

ومما يستدعي التساؤل حادثة السطو بالأستاذ عبد الحميد بن باديس والتي وقعت في 14 ديسمبر 1926م، حيث وجهت أصابع الاتهام إلى شيخ الطريقة العلاوية بتدبير، وأمْر أحد مريديه أن يقتل الإمام ابن باديس، وذلك لوجود أدلة تثبت شيئا من العلاقة بين مُحاوِلِ القتل وشيخ الطريقة. ومما قد يضعف نسبة محاولة القتل لشيخ الطريقة وبُعده عنها، ما ذكره ابن باديس من حرارة اللقاء مع شيخ الطريقة، والمعاملة الجيدة التي عومل بها ابن باديس لما نزل مقر الطريقة، بعد ذلك بسنوات، وثناء ابن باديس على أخلاق الشيخ، وإعجابه بسعة صدره، وجمال سمته.

والمتتبع لعلاقة ابن باديس برجال الطرق الصوفية يجد أن الطريقة العلاوية هي الوحيدة التي أخذت النصيب الأوفر في علاقتها به، من خلال الردود أو التجاذبات الفكرية، حيث شغلت هذه العلاقة حيِّزا إعلاميا كبيرا في صحف الإصلاح أو في الصحف الطرقية، قد يكون فيها لحماس الأتباع والدهماء النصيب الأوفر في إذكاء الخلاف وتوسيع الخرق بين الطائفتين. فقد رأينا أن ابن باديس عند زيارته لشيخ الطريقة العلاوية يقول بعدم انفكاك القول عن الفعل، فهو وإن كان يدعو

إلى جمع الكلمة في كتاباته، فقد أتبع الفعل القول في الاجتماع بالمشايخ، وحرص على لقائهم عن قرب.وأمام هذا كله يحسن بالبحثِ معرفة سبب الخلاف بين جمعية العلماء والطريقة العلاوية.

6. 1. سبب الخلاف بين ابن باديس والطريقة العلاوية:

حفل تراث الجمعية بمجموعة من الردود والخلافات بين جمعية العلماء والطرق الصوفية تكاد تكون محصورةً في الخلاف مع الطريقة العلاوية، إما لنشاطها المتزايدة في تلك الفترة، وإما لأسباب أخرى. والسبب الظاهر للخلاف بين ابن باديس، وشيخ الطريقة العلاوية، بدأ عندما أصدر شيخ الطريقة العلاوية ديوانه الشعري سنة 1920م، وقام بنشره في الناس بعد طبعه بتونس. فورد إلى ابن باديس سؤالٌ، يسأل صاحبه عن رجل يزعم أنه قطب الزمان الفرد، وأن الكلَّ دونه، وأنه العارف المُسَلِّك، إلى غيرها من أعلى صفات العارفين، وأسمى درجات الكاملين. وأنه قال أبيات جاءت في الديوان يفهم منها سوء أدب مع النبي ❒ ، وهذه الأبيات هي:

إنْ مِـتْ بالشـــوق مْنَكَدْ * ما عذر يْنَجِيكْ

إن تبق في هجري زائدْ * للمولى ندعيكْ

من هــــو بالملك موحدْ * ينظر في أمركْ

عَبَسَ بالــــــقولْ تْسَاعَدْ * ما نرجوه فيكْ

وأردف السائل يقول أن أحمد بن عليوة لما سئل عن هذه الأبيات قال: أَلسُنُ المحبين أعجمية (أحمد حماني، 1984م، 63/1).

وهذه الأبيات لا توجد في ديوان الشيخ العلاوي المطبوع للمرة الرابعة، لكن المتتبع يجد قصيدة على نفس وزن هذه الأبيات مطلعها: يَا سِيدِي أحمَدْ يا محَمَّدْ صَلَى اللهْ عْليكْ * يا من بك القلبْ تأَيَّدْ وترَبَى عليكْ. (أحمد بن مصطفى العلاوي، الديوان، (د.س)، ص87- 89). وقد ذكر أحمد حماني أن تلك الأبيات قد اختفت من الديوان بعد بقائها مدَّة به .(أحمد حماني، 1984م، ص61، 63، 88) فتردد ابن باديس في الجواب أولا، ثم استخار الله، وكتب في الرد على صاحبها رسالة صغيرة الحجم، عنوانها (جواب سؤال عن سوء مقال)، وانتهى من تحرير الجواب سنة 1922 م. وأرسل بها إلى كبار علماء تونس والجزائر والمغرب، فاطّلعوا عليها، ووافقوا على ما جاء فيها، وضلَّلوا من فاه بمثل هذا الكلام، ومن هؤلاء العلماء من تونس: الشيخ محمد النخلي، وبلحسن النجار، ومحمد الطاهر بن عاشور، ومحمد الصادق النيفر، ومعاوية التميمي. ومن الجزائر، الشيخ شعيب بن علي التلمساني، ومولود بن الموهوب القسنطيني. ومن علماء المغرب، الشيخ العابد بن أحمد بن سودة، ومحمد بن العربي، وعبد القادر بن محمد بن عبد القادر، كما قرظها غير هؤلاء في الصحف والمجلات كمجلة الفتح القاهرية (عمار طالبي،1997م، 152/3- 173).

وبعد أن انتشر الرد، حدثت صدمة عنيفة أصابت الطريقة العلاوية، وشككت في عقيدته، مما اضطره إلى الانتقام من الشيخ ابن باديس بعد ذلك، في سنة 1926م، وَفقالقول أحمد حماني(أحمد حماني، 1984م، 63/2). هذا في رأيي السبب الظاهر للخلاف بين الشخصين، وإن كان هذا الخلاف قديما بين المنتسبين إلى السلفية، والمنتسبين إلى الصوفية، فليس هذا بالشيء الذي تقرع له طبول الحرب، ويشحذ له الموسي من نوع " بوسعادي " لنحر الإمام عبد الحميد بن باديس. فعلماء الطائفتين على دراية بالخلاف، ولكل سلفٌ يتكئ عليه في الاعتقاد، والرد على المخالف. ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾[هود: 118-119].

وفي نظري أنه يوجد سبب آخر، وهو أن الطريقة العلاوية طريقة جديدة مقارنة بالطرق الأخرى العريقة، والمتأصلة في نفوس الجزائريين، والتي كانت في ود ووئام مع جمعية العلماء، وقد انحاز بعضها إلى صف الجمعية أحيانا، واتبعت منهجها في التربية والتعليم كما سنذكره لاحقا. أما العلاوية فجِدَّتُها أثارت حولها مجموعة من الشكوك. بالإضافة إلى سرعة انتشارها الهائلة في ظرف قياسي، حيث زاحمت الطرق الصوفية الأخرى في قعر دارها، فكأنَّ الأمر صراع حول مراكز النفوذ، وممن أشار إلى هذا من طرف خفي أحمد حماني في كتاب ((الصراع بين السنة والبدعة))؛ والذي ألفه مؤرخا لحادثة السطو على الإمام، يقول عن الطريقة العلاوية:" فقد كان ابن عليوة قد آلت إليه مشيخة زاوية (درقاوة) بمستغانم بوصية من شيخه محمد بن الحبيب البوزيدي المتوفى سنة 1909م، ولكن الشيخ ابن عليوة كان طموحا جدا، فجدَّد الطريقة، وأدخل على نظامها وطقوسها، وعلى دعايتها تغييرا شاملا؛ مما جعلها تُنسبُ إليه بدلا من نسبتها إلى الدرقاوي أو الشاذلي، خرج بها من مستغانم لتنتشر في الآفاق" (أحمد حماني، 1984م، 62/1).

ثم ذكر بعدها الشيخ حماني أن العلاوية نشطت على يدي مؤسسها نشاطا هائلا، فامتدت إلى أصقاع بعيدة في وجيز من الوقت، حاملة اسمها الجديد، فعمَّت الجزائر، وبلغت المغرب، وتونس، والشام، واليمن، وبريطانيا، وفرنسا، وبعض البلدان الأوربية. ثم قال:" وفي داخل الوطن كادت تبتلع الطرق الصوفية وخططت – أو خُطِط لها- أن تزاحم في بلاد القبائل الطريقة الرحمانيَّة، وتخلفها في أتباعها، لأنه تبين للمستعمرين أن (الرحمانية) لا يُؤمَنُ جانبها في القبائل. ومن بين التجديدات التي أعلنها الشيخ ابن عليوة اعتناقه لمبدأ الحلول، ووحدة الوجود، وزعمه في أشعاره العامية أنه (هو الله)، وأنه (ليس سواه)...." (أحمد حماني،1984م،62/1). والظاهر من كلام أحمد حماني أن هناك سببا آخر للخلاف وهو الخوف من احتواء الطريقة الجديدة للطرق الأخرى المتأصلة في المجتمع الجزائري، والتي ما من جزائري إلا وله صلة بها من قريب أو بعيد، وخصوصا الرحمانية بالشرق الجزائري والمشهورة بمقاومة الاستعمار، وتثبيت قواعد الإسلام في بلاد البربر المعرضة لحملات التنصير. إضافة إلى التوجس من أن تكون الطريقة الجديدة المنتشرة بقوةٍ أداةً من أدوات الاستعمار في تخدير الأمة الجزائرية، والقعود عن المقاومة باعتبار الاستعمار قدَرًا من الله قضاه، ولا رادَّ لقضائه، لذلك كان ابن باديس يقول:" كان الذين يتسمون بالعلم –إلا قليلا– بين جامد خرافي تستخدمه الطرقية، وما يحرك

الطرقية في التخدير والتضليل، وهو لا يدري المسكين ما يدس به للأمة من كيد، وحاذق دنيوي قد غلبه الوظيف ..."(عمار طالبي، 1997م، 367/4).

قد يكون هذا سببا في الخلاف إذا علمنا أن الطريقة الرحمانية لها صلات قوية بجمعية العلماء، وتربطها بها وشائج قرابة مكانيَّة ودمويَّة. ويزاد عليه الخلاف سياسي لاشتباههم بوجود علاقة بين العلاوية والاستعمار، وآخر إداري مؤسساتي من خلال اكتساح الطريقة العلاوية لأراضي الطرق الأخرى في عقر ديارها، ومحاولة استمالة مُحبيها ومُريدها بوسائل مشروعة وغير مشروعة. ومن تأمل صيغة السؤال الذي طرِحَ على ابن باديس، تَوَسَمَ أن السائل قد يكون من أتباع الطرق أراد بالعلاويَّة سُوءا، حيث يظهر من كلام السائل عدم رضاه أن يحتكر العلاويُّ القطبانية الزمانية، وأن يدعيَّ أن الكلَّ دونه، وأنه هو وحده العارف المُسلك، ويزعم أنه بلغ أعلى صفات العارفين، وأدرك أسمى مقامات الكاملين.

وهذا الكلام قد يكون حاملا في طيَّاته صراعا بين الطرق ومشايخها. وهذا الصراع واقع موجود، وأمر محسوس لا يُنكر. فمن اطَّلعَ على كتاب العلاويِّ ((أعذب المناهل في الأجوبة والمسائل)) يجد سائلا يسأل العلاويَّ عن قول أحمد التجانيِّ:" لا شيخ بعدي" هل هي قولة محققة؟ وإن كان كذلك، فما هو معناها؟ فأجاب العلاويُّ بطريقته اللبقة المؤدبة المعتادة؛ فقال :" فكونها صدرت منه، الله أعلم بذلك. وإن ثبتت نسبتها إليه، فمن المحتمل أن يكون نفيُ الشيخوخة خاصا بطريقته، أي عمن بقي من أتباعه بعده، عند ما أطلعه الله على ما هم عليه في نفس الأمر، فوجدهم غير مستعدين لحمل أعباء المشيخة، فأخبر بذلك. وقد تحققت الآن في أصحابه، فإني حتى الآن لم يبلغني من ادَّعى منهم المشيخة بطريق الاستقلال، ولا نسمح أنه أراد بذلك نفي الخصوصية في الأمة المحمدية..."(أحمد بن مصطفى العلاوي، (د.س)، ص105). هذا فيما يتعلق بعلاقة ابن باديس بمشايخ، ورجال الطرق الصوفية باعتبارها مناهج تعتمد سبلا في التربية والسلوك الروحي. فما هي نظرة ابن باديس إلى التصوف بصفة عامة بغض النظر عن تفصيلات وتسميات الطرق السالكة طريقه؟

7. نظرة ابن باديس إلى التصوف باعتبار أشخاصه:

يفرق ابن باديس في تعامله مع الطرق الصوفية بين التصوف كمنهج، وبين المنتسبين إليه؛ فهو وإن حارب مظاهر متعددة عُرف بها الصوفية، وتعد منهجا خاصا بهم في التلقي، وطريقة في السلوك والتربية. إلا أنه يفرق بين الانتساب إلى الطرق وبين الانتساب إلى التصوف كسبيل يتخذه العبد مسلكا للوصول إلى ربه، فها هو ذا نجده في أخريات حياته يقول:" حاربنا الطرقية لما عرفنا فيها – عَلِمَ الله- من بلاء على الأمة من الداخل ومن الخارج، فعملنا على كشفها وهدمها مهما تحملنا في ذلك من صعاب ... ثم نمد يدنا لمن كان على بقية من نسبته إليها لنعمل معا في ميادين الحياة على شريطة واحدة وهي: أن لا يكونوا آلة مسخرة في يد نواحٍ اعتادت تسخيرهم، فكل طرقيٍّ مستقل بنفسه عن التسخير، فنحن نمدُّ يدنا له للعمل في الصالح العام. وله عقليته لا

يسمع منا فيها كلمة. وكل طرقيٍّ – أو غير طرقي- يكون أذُنًا سماعة، وآلة مسخرة فلا هوادة بيننا وبينه حتى يتوب إلى الله". (عمار طالبي، 1997م، 369/4).

فكلام ابن باديس في هذا الباب قائم على قبول العمل مع كل عالم وعامل صوفي شريطة أن لا يكون تابعا لطريقة من الطرق التي ثبتت لديه أنها من أدوات الاستعمار، لأنه قد ذكر قبل هذا الكلام أن خلافه معها في المسائل العلمية، قد علمه الناس وتبينوه، وأعذرت الجمعية عند الله في بيان ذلك، فأمرها متروك إلى الأمة. قال ابن باديس:"ولقد صمد(الشهاب) للطرقية يحارب ما أدخلته على القلوب من فساد عقائد، وعلى العقول من باطل وأوهام، وعلى الإسلام من زور وتحريف وتشويه، إلى ما صرفت من الأمة عن خالقها بما نصبت من أنصاب. وشتت من كلمتها، بما اختلقت من ألقاب. وقتلت من عزتها، بما اصطنعت من إرهاب"(عمار طالبي، 1997م، 369/4).ولقد عدَّ صاحب كتاب (جمعية العلماء المسلمين والطرق الصوفية وتاريخ العلاقة بينهما) أن ابن باديس من الشخصيات الأكثر اعتدالا، وأحسنهم أدبا مع المخالف، أخبر أنه يشعر من غير أن يستطيع أن يثبت ذلك بدقة أن ابن باديس كان معرضا لضغوط من طرف المتشددين من رجال الجمعية الكبار، والذين كان يحرص على إرضائهم، ومما استدل به على رأيه وشعوره؛ ما نشره ابن باديس في أحد أعداد (الشهاب) وهو العدد 19 تحت عنوان (في سبيل الوفاق والتفاهم) (نورالدين بولحية، 2015م، 198/1) ، أراد من خلاله وقف ذلك التيار القويَّ من الكتابة الإصلاحيَّة، لكن هذه الدعوة لم ترقْ أحد أعضاء (الشهاب) وهو الشيخ العقبي، فقاطع الكتابة في المجلة، لأنه عدَّ ذلك تحجيرا تاما، ومنعا صريحا لكل كتابة في الإصلاح الديني، مما استدعى نشر مقال آخر في (الشهاب) يدعو المصلحين إلى العودة في نقد الدجل والدجالين، بسبب حادثة السطو على ابن باديس، وفي هذا التراجع من طرف ابن باديس حرصٌ على بقاء العقبي لأهميته في الجمعية، أما العقبي فكتب مقال الرجوع بعد حادثة السطو على الإمام يحمل عنوان ((أما الآن فنعم، وقد وجب الرجوع))(الطيب العقبي ا.، 1927م، ص13)، عاتب فيه الإدارة على منع كتابها الأحرار، وتقييدهم بتلك القيود والأغلال، في سبيل الوفاق والتفاهم، وأخبر أن (الشهاب) قد أعطى امتيازات للطرقية وأرباب الزوايا في ظل هذا المنع، مما نتج عنه مفاوضات طويلة عريضة، كان الكلام فيها مُرًّا وشديدا (أحمد حماني، 1984م، 26/2).

وقد أوضح الشيخ أحمد حماني ذلك حين قال عن الطيب العقبي:" وكان يميل في أسلوبه إلى الشدة والعنف والصراحة المريرة، بينما كان الشيخ عبد الحميد بن باديس يجنح – نوعا ما- إلى الأخذ بالرفق واللين والدعوة بالتي هي أحسن، ويعز عليه ما وصلت إليه الحال بين الطرفين" (أحمد حماني، 1984م، 62/2). لذلك لما توطدت العلاقة بين ابن باديس والعقبي سنة 1924م، راسل ابن باديس العقبي مباركا أعماله ومجهوداته الإصلاحية، فأقلق هذا الموقف الطرق الصوفية، لأن ابن باديس في نظرهم كان أكثر ليونة، ولم يرغبوا في أن يؤثر العقبيُّ بمنهجه المتشدد في ابن باديس. ويُذكر بهذه المناسبة أن ابن باديس زار العقبي في بسكرة من أجل إخماد نار الفتنة بين العقبي والطرق، ولكنه فشل في مساعيه بسبب صلابة موقف العقبي(نورالدين بولحية، 2015م، 199/1).

ومما يستدعي التنويه والتأكيد رغبةُ ابن باديس في لقاء مشايخ الصوفية أثناء رحلاته التي كان يقوم بها، فما من بلدة نزلها إلا وحرص على لقاء المشايخ والتباحث معهم، ولم يكن ممن يأنف مجالستهم والاستماع إلى أحاديثهم فكثيرا ما نجده يثني على مشايخ منهم، وعلى رغبتهم في تعليم الناس وهدايتهم، مما هو منوط بهم كمشايخ للتربية والتذكير الإسلامي؛ من ذلك ما ذكره خلال رحلته إلى الجهة الغربية، أثناء دخوله مدينة غليزان، أنه التقى بالشيخ مولاي محمد أحد أهل العلم وشيخ الزاوية بها، فأثنى عليه وقال: "وهو من شيوخ الزوايا الذين لهم رغبة في نشر العلم، وهداية الناس بها، وسعة الصدر في سماع الحق وأدلته" (عمار طالبي، 1997م، 310/4).كما نجده يتألم ويتحسر على عدم لقاء أحد المشايخ، وكأنه فاته بعدم اللقاء شيء عظيم، وما ذلك إلا سمة من سمات الأخوة الإسلامية التي رُزقها ابن باديس في نشر تعاليم الإسلام السمحة والصحيحة، فقد تكلم عن أحد مشايخ غليزان فقال:" وكنت مشتاقا للاجتماع بالشيخ سيدي الحاج العربي التواتي، وبلغني أنه كان بغليزان، ثم بلغني أنه سمع بنا ورآنا، ولم يشأ أن يجتمع بنا، فعجبنا لذلك، وأسفنا، ثم زال عجبنا لما بلغنا أن في قلبه شيئا على جمعية العلماء، وقاها الله شر كل شر. وقلنا ليته تنازل فاجتمع بنا فكنا لا نفترق- بإذن الله تعالى – إلا على محبة وخير ورجوع للحق. ولهذا الأخ الشيخ العربي كتاب عندنا يعاتبنا فيه على دعوتنا للتوحيد، ويخلط فيه بين دعاء المخلوق، وطلب المؤمن الدعاء من أخيه، ولعلنا نجد فرصة لنشر هذا الكتاب والتعليق عليه" (عمار طالبي، 1997م، 310/4).

ومما يظهر تأثر بعض مشايخ الطرق الصوفية بمنهجية ابن باديس المعتدلة، ما قام به شيخ (القادرية) بمركزها واد سوف عبد العزيز الهاشمي الشريف، المعروف بـ(ملك التمور)، والذي اقترب من منهج الجمعية بعد أدائه فريضة الحج سنة 1936م،وتسارُع الأحداث بعد انعقاد المؤتمر الإسلامي الجزائري شهر جوان1936م، فراسل شيخُ القادرية ابنَ باديس في شهر أكتوبر1937م، ببرقية يفصح فيها عن رغبته في الانخراط في الجمعية، فبادر ابن باديس بتعيينه عضوا فاعلا في مكتب الجمعية مكلفا بمناطق وادي سوف وما جاورها. فانتشرت دعوة العلماء انتشارا واسعا بتلك المناطق نتيجة السعي الحثيث للشيخ عبد العزيز، وقد قام هذا الشيخ بتحويل جزء من زواياه إلى مدرسة عصرية على طراز مدارس جمعية العلماء، وفَتحَ مدرسة أخرى بالوادي، وانتدب لها من الشيوخ ما يحوّلها إلى معهد إسلامي يتوفر على الشروط الضرورية. فضايقته الإدارة الاستعمارية مطالبة إياه بالترخيص، فأجابها الشيخ:أن الزاوية تقوم بدور التعليم من قديم الزمان دون رخصة. وقد حضر الشيخ عبد العزيز أعمال المؤتمر السنوي للجمعية بنادي الترقي في 24 سبتمبر 1937م، وطالب ابن باديس من العقبي أن يقدم الشيخَ عبدَ العزيز الهاشمي الشريف إلى الحاضرين، وكان لهذا التقديم أثره ومغزاه، لأن ابن باديس يدرك الشدة التي يحملها العقبي على الطرقيين(نورالدين بولحية، 2015م، 1/81-83).

8. نظرة ابن باديس إلى التصوف باعتباره فكرا:

لا تختلف نظرة ابن باديس للتصوف عن غيره من العلماء، فهو يقول به، ولا ينكر أصله، وإن أنكر كثيرا مما علق به من المخالفات، فقد ذكر أثناء رحلاته في أرجاء الوطن كثيرا ما كان يسأل

عن التصوف، والولاية، والكرامة، والتوسل، فذكر أنه كان يجيب: "بأن ما كان من باب تزكية النفس، وتقويم الأخلاق، والتحقق بالعبادة، والإخلاص فيها، فهو من التصوف المقبول، وكلام أئمته فيه ككلام سائر أئمة الإسلام في علوم الإسلام، لا بد من بنائه على الدلائل الصحيحة من الكتاب والسنة، ولابد من الرجوع عند التنازع فيه إليهما، وكنت أذكر ما يوافق هذا من كلام أئمة الزهد المتقدمين كالجنيد وأضرابه" (عمار طالبي، 1997م، 319/4). أما عن الولاية فقد سبقت الإشارة إلى رأيه فيها عندما زار مقر الزاوية العلاوية بمستغانم، فهي منطوق لفظ القرآن الكريم، ومفهوم سلوك النبي❐، وسيرة أصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، يقول ابن باديس عن الولاية:"الولاية من الإيمان، فأكمل الناس إيمانا أكملهم ولاية، وإن الكرامة حق بحقيقتها وشروطها مذكورة في كتب الأئمة" (عمار طالبي، 1997م، 319/4).

ويذهب ابن باديس إلى اعتبار التصوف المقبول تصوفا سنيًّا كسائر العلماء، وهو ما نجده يعتبره عند التعريف بعلمين من أعلام الإسلام وهما أحمد الشريف السنوسي، ومحمد رشيد رضا؛ فقد قال مؤبنا السنوسي، معنونا مقاله بـ (الصوفي السني بين الحكومة السنية والحكومة الطرقية)، فعرَّف بالصوفيِّ السنيِّ فقال:"أما الصوفيُّ السنيُّ فهو الإمام المجاهد أحمد الشريف السنوسي الذي توفاه الله منذ أشهر بالمدينة المنورة، فقد كان على جانب عظيم من التمسك بالكتاب والسنة، والتخلق بأخلاق السلف الصالح، وكانت دعوته إلى الله، وإرشاده للعباد بهدايتهم، وكانت تربيته لأتباعه مبنية على التفقه في الدين، والتزام العمل به، والزهد والصبر، وحفظ الكرامة"(عمار طالبي، 1997م، 48/3).

أما عن محمد رشيد رضا، فقد وضع ترجمة له بعد وفاته، معرفا به لقراء مجلة (الشهاب) باعتباره رائدا من رواد الإصلاح، فعندما أتى على ذكر الكتب التي خرجته، قال:" شغف بكتاب الإحياء، فطالعه كله، وأعاد مطالعته، فكان له الأثر الصالح في زهده، وأخلاقه، وإخلاصه في العلم، وتقواه في العمل، وكان طريقه منه في فهم الدين، أنه دين روحاني أخروي فقط، وأن إرشاد المسلمين محصور في تصحيح عقائدهم، ونهيهم عن المحرمات، وحثهم على الطاعات، وتزهيدهم في الدنيا" (عمار طالبي، 1997م، 196/4). وقد ذكر بعد ذلك أن كتاب (الإحياء) حبَّب إليه مجاهدة النفس على طريقة الصوفية؛ بترك أطيب الطعام، والاكتفاء بقليله، والنوم على الأرض، وغير ذلك. ثم رام بعد ذلك أن يسلك الطريق على الأصول العلمية، غير مُعجَبٍ بسلوكه على وجه صوري من تلاوة الأوراد الشاذلية، وحضور الاجتماعات، فقال له شيخه: يا بني إنني لست أهلا لما تطلب، فهذا بساط قد طوي وانقرض أهله. ثم انتقل بعدها إلى النقشبندية، فقطع مراتبها كلها(عمار طالبي، 1997م، 197/4).

ثم دعاه شغفه بكتاب (الإحياء) إلى اقتناء شرحه الأثري للإمام المرتضى الزبيدي الحسيني، فحبَّب إليه الشرح الاشتغال بعلوم الحديث، فتخلص مما في كتاب الإحياء من الخطأ الضار- وهو قليل- ولاسيما عقيدة الجبر، والتأويلات الأشعرية والصوفية، والغلو في الزهد وبعض العبادات المبتدعة، فترك الأوراد الشاذلية، والنقشبندية، واستبدل بهما قراءة القرآن، والصلاة على النبي ❐. ثم أخذ ابن باديس يصف التصوف المشروع الذي سلكه محمد رشيد رضا، والذي رضيه ابن

باديس منهجا في التزكية الإسلامية، فقال: "فتخلص نسكه بعد طرح ذلك كله للتنسك الإسلامي؛ من تجريد التوحيد، وتزكية النفس، وتقويم الأعمال، وتصحيح النية، ومحاسبة النفس، ومراقبة الله في جميع الأعمال والزهد في الدنيا، والعمل للآخرة، والمبالغة في العبادات المشروعة، والاعتصام بالورع موزونا ذلك كله، ومضبوطا بالكتاب والسنة، وما كان عليه أهل القرون الثلاثة الصحابة والتابعون وأتباع التابعين رضي الله عنهم أجمعين. وهذا الذي يراد بالتصوف إذا جاء اسم التصوف في كلام علماء السنة والأثر، وقد كان السيد محمد رشيد رضا رحمه الله من أئمتهم، فهذا تنسكه وهذا هو تصوفه" (عمار طالبي، 1997م، 198/4).

فظاهر من كلام ابن باديس وإعجابه بالتصوف الذي صار إليه محمد رشيد رضا، وهذا ظاهر في أن ابن باديس يميل إلى ما سماه التصوف السني، إذ كثيرا ما نجد ابن باديس ينتقد مظاهر تخرج المغرقين فيها من التصوف السني إلى غيره، فهاهو ذا يخصص مقالا يحمل عنوان (طلب الآخرة وحدها مذموم في الإسلام – غلو الصوفية بجعل الكمال عدم طلب الدنيا والآخرة)، ذكر في مقدمته أن الطمع في فضل الله لا ينافي إخلاص العبادة له، وأن العبادة المتجردة عن الرجاء والخوف ليست عبادة جاء الإسلام بها، ثم أردف بمقال بعثه به محمد رشيد رضا، يتعلق بالموضوع نفسه (عمار طالبي، 1997م، 52/3).

كذلك نجده يستدل بأقوال العلماء السالفين في إنكار البدع الفاشية، والضلالات الرائجة، مبينا لأصحاب الطرق ما هم عليه من بعض مظاهر الانحراف، فقال ابن باديس:"أردنا أن ننقل لقراء (السنة) بعضا من إنكار أهل العلم على هؤلاء المتسمين بالفقراء المدعين لطريقة الزهد المتمسكين بالبدعة ليعرفوا سنة العلماء في الرد عليهم، والتقبيح لحالهم، والتحذير من ضلالهم فيعلموا أن العلماء الإصلاحيين المعاصرين ما جاءوا إلا على سنة سلفهم المتقدمين ، ما قاموا إلا بما يفرضه عليهم الدين من نصح المسلمين، وإرشاد الضالين والذب عن سنة خاتم الأنبياء والمرسلين ❐"(عمار طالبي،1997م، 42/3). ثم شرع بعدها ابن باديس في العلماء الأعلام، ونصوصهم في الإنكار على أصحاب للبدع والمحدثات،؛ فذكر القشيري، وأبا بكر الطرطوشي، وأبا حيان الأندلسي، وأبا إسحاق الشاطبي، والقلصادي المالكي، وعبد الرحمن الأخضري الجزائري، وعبد الكريم الفكون القسنطيني، ومحمد العروسي.

وفي هذا الصنيع من الإمام ابن باديس محاولة للتبرؤ من التفرد بانتقاد المظاهر الذي علقت ببعض الطرق الصوفية، وما شابها من مخالفات غيرت بهاء جانب مهم من الجوانب الروحية في الإسلام ألا هو تزكية النفوس.

ونقد ابن باديس للتصوف لم يخرج عن قول الجمهور من علماء الإسلام في اعتبار التصوف لونا من ألوان التزكية للنفس البشرية، فهو لم يخرج عن المسار المعروف، وإن كان قد انتقد بعض المظاهر والتصرفات أو الشطحات الصوفية التي تعد من سنن كل تجربة بشرية؛ إذ أنه من تتبَّع حركة التاريخ عرف أنه لا يخلو عصر في كل نسق فكري من مريدين يلتزمون الإفراط منهجا

وسلوكا وأفكارا، وآخرون ينتهجون التطرف كذلك. فهذه من ميزات البشر إلا من عُصِم أو رزق الفكر المسدَّد مع الرأي المؤيَّد.

9. خاتمة:

مما سبق ذكره يتبيَّن للقارئ أن ابن باديس قد قاد حملة من التوعية لإصلاح حال الأمة الجزائرية، في ميادين متعددة، ومن أهمها ما يتعلق بجانب التصوف، فقد نقد كثيرا من الأشياء التي رأى أنها تخالف ما لم يكن عليه المسلمون في القرون المفضلة، وقد اتسمَّ إنكاره هذا بنوع من الأدب والإنصاف، والبعد عن المجافاة والغلظة، وهذا يُلحظ في علاقته مع رجال ومشايخ الطرق الصوفية، التي هي موضوع هذا البحث، فقد مثّل فيها ابن باديس الصورة الحقيقة لما يجب أن يكون عليه المسلم الحق في التعامل مع المخالفين، وقد كان حريصا دائما على توطيد العلاقات الإنسانية مع الجميع، تحقيقا للهدف الأسمى وهو إحياء مقومات الأمة الجزائرية الإسلامية، وبعث كيانها من خلال رأب الصدع، وجمع الكلمة، لأن ما يجمع المسلمين كثير إذا ما قورن بالقليل الذي يختلفون فيه. وهذا ما يدعو إلى الاستفادة من هذا المنهج والعمل في الحياة، وتوجيه أنظار الباحثين إلى طَرْقِ الموضوعات التي تجمع الفرق الإسلامية، والطوائف المختلفة، على أصول الإسلام التي يمكن الاتفاق عليها، لأن الاختلاف سُنة إلهيَّة.

قائمة المراجع:

1- أحمد بن مصطفى العلاوي، (د.س)، أعذب المناهل في الأجوبة والرسائل، المطبعة العلاوية، مستغانم، الجزائر.

2- أحمد بن مصطفى العلاوي، (د.س)،الديوان، المطبعة العلاوية،مستغانم، الجزائر.

3- أحمد توفيق المدني،(1977م)، مذكرات حياة كفاح،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
4- أحمد حماني،(1984م)،الصراع بين السنة والبدعة، دار البعث، قسنطينة ، الجزائر .

5- الطيب العقبي، (1927م)، "أما الآن فنعم، فقد وجب الرجوع"، الشهاب، عدد 78، مؤسسة أحمد بوشمال، قسنطينة، الجزائر.

6- سيد عبد الحميد مرسي، (1986م)،العلاقات الإنسانية، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر.

7- صلاح مؤيد العقبي، (2002)،الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطه، دار البراق، بيروت، لبنان.

8- عادل نويهض، (1980م)، معجم علماء الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان.
9-عبدالباقي مفتاح، (2009م)،أضواء على الشيخ أحمد التجاني وأتباعه، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

10- عمار طالبي، (1997م)،آثار ابن باديس، الشركة الجزائرية، الجزائر.

11- مازن صلاح مطبقاني، (1999م)، عبد الحميد بن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي، دار القلم، دمشق، سوريا.

12- محمد بن سمينة، (1992م)، محمد العيد آل خليفة دراسة تحليلية لحياته، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

13- محمد بن عايد المشاوية الدوسري، (2005)،العلاقات الإنسانية في الفكر الإداري الإسلامي والمعاصر، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، المملكة العربية السعودية.

14- نورالدين بولحية،(2015)، جمعية العلماء المسلمين والطرق الصوفية وتاريخ العلاقة بينهما، دار علي بن زيد للطباعة والنشر، بسكرة، الجزائر.